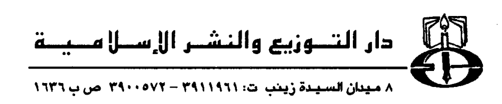


الملك المظفر سيف الدين قطز

قائد عين جالوت وهازم التتار

محمد محمود القاضي


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ففتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا .

وبعد،

فإن الجهاد فى سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وما تركه قوم إلا ذلوا، ومنذ أن أمر الله المسلمين بقتال المشركين فى قوله تعالى : **﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾** [التوبة: ٣٦]، انطلقت كتائب الجهاد فى سبيل الله تفتح البلاد شرقاً وغربًا ابتغاء رضا الله **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٧٤].

وكانت كـتائب الجـهاد تدرك هدفـها جيـدًا، فقـد كانت رسالتهـا فى كل لقاء لها مع أعـداء الله واضحة، وهى: «إن الله ابتـعثنا لنخـرج من شاء من عـبادة العـباد إلى عـبادة الله وحده، ومن ضيق الـدنيا إلى سعتهـا، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وكان يقود هذه الكتائب قادة عظام صدقوا ما عاهدوا الله عليـه، فـصـدقـهم الله، وفـتح على أيديـهم، وأيدهم على أعدائهم فى معارك فاصلة.

وسوف نـقدم فى هذه السلسلة نماذج فـريدة لقادة الفـتح الإسلامى الذين ضربوا أروع الأمثلة فى فنون القيادة والحرب، وكـانت المعارك الحـربية التى قـادوها دليـلاً على عبـقريتـهم وعظمتهم، فيجـدر بكل مسلم أن يدرس سيرة هؤلاء القادة؛ ليقتدى بهم فى حياته، والله نسأل أن يرزق أمتنا بأمثال هؤلاء القادة الأفذاذ، فيفـتح الله على أيديهم، ويعيدوا للإسلام عزه ومجده.

المؤلف

العالم الإسلامى

بدأ الضعف يسيطر على الخلافة العباسية فى نهاية عهدها، فقد استنزفت الحروب الصليبية قدرًا غير يسير من قدرات العالم الإسلامى القتالية، علاوة على تلك الانقسامات الداخلية التى أضعفت القدرة على المجابهة والصمود ومواصلة مسيرة الجهاد.

ولم يكن الغزو الصليبى لبلدان المسلمين قد انتهى بعد، فقد كانت أوروبا لا تزال ترسل حملاتها على بلاد الإسلام، وكان آخرها تلك الحملة التى توجهت هذه المرة إلى مصر بقيادة لويس التاسع عام ١٢١٧م، واستطاع الملك الكامل أن يتصدى لهذه الحملة.

ويبدو أن حماسة الغرب للحروب الصليبية قد فترت

بعد فشل هذه الحملة، وأصبح القلق يهيمن على ملوك الغرب فى كيفية المحافظة على تلك المملكة التى أقاموها فى قلب العالم الإسلامى.

وفى هذه الفترة، كانت هناك قوة جديدة قد بدأت تتعاظم وتشكل خطرًا كبيرًا على مشرق العالم الإسلامى، وهذه القوة متمثلة فى المغول أو التتار.



المغول والتتار

كان المغول فى الأصل عبارة عن مـجموعة من القبائل التى تسكن فى أعـالى نهر آمـور، الذى يقع فى شمـالى شرق آسيـا، وكانوا يعيشون فى حرب دائمـة مع جيرانهم النازلين بالقرب منهم وهم التتار.

وقـد أسس إمبـراطورية المغول شـاب مغـولى اسمـه تيموجين، وذلك بعد اختيـاره ملكا على جميع المغول عام ١١٩٤م، وقد اتخذ تيـموجين لنفسه اسـما جديدًا، وهو جنكيز خان، أى الملك القوى.

وكان والد تيموجين زعيم مغولى اسمه يسوكاى، وقد ولد فى مـوضع على شاطئ نهـر أونو فى شمالـى شرقى آسيا.

واستطاع جنكيز خان أن يخضع التتار أيضًا لحكمه، ولم تمض سنوات قليلة حتى فرض سيطرته على كل القبائل التى تعيش بين حوض نهر التاريم، ونهر آمور، وسور الصين العظيم.

وفى سنة ١٢٠٦م عقد مجلس لكل زعماء القبائل التابعة لجنكيز خان على شاطئ نهر أونون، وأعلن هذا المجلس موافقته على ما اتخذه جنكيز خان من اللقب الملكى، وأن يطلق على كل القبائل الخاضعة لحكمه اسم المغول.

وقام جنيكز خان بعد ذلك بتنظيم إمبراطوريته، وكون جيشًا كبيرًا، فقد كان أفراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة والستين سنة يلتزمون بالخدمة العسكرية، ولم تكن حملات الصيد التى يقوم بها أفراد الجيش فى كل شتاء لإمداد الجيش والبلاط باللحوم أكثر من مناورات لتدريب المقاتلين بصورة مستمرة.

وكانت القبائل تؤلف جيشا من الفرسان والرماة

والرمّاحة الذين يستخدمـون الخيول السريعة العدو، ودرج الرجال والفرسان منذ الولادة على ممارسة الحـياة القاسية، والقيام بأسفار بعيدة عبر الصحارى، وليس لديهم إلا قدر قليل من الزاد والماء، وكان هذا الارتباط بين سرعة الحركة والنظام والأعداد الضخمة هو الـطابع المميز لجيش المغول، وكان أفراد الجيش يلتزمون بالطاعة الكاملة لقادتهم.

وبدأ جنكيز خان يعتمد عـلى جيشه فى توسيع حدود دولتـه واسـتطاع أن يسـيطر عـلى مملكة كين فى شـمـال الصين، وضم إليـه منشوريا، واعتـرفت كوريا بسـيادته، وأصبحت دولة المغول دولة كبيرة لها سيادة.



بداية الصراع بين المغول والمسلمين

فى شـرق العالم الإسـلامى كـانت تقع دولة مسلمـة كبيرة تسمى الدولة الخوارزمـية، وكانت تمتد من كردستان والخليج العربى حتى بحر آدال وهضـبة بامير ونهر السند، وكان يحكم الـدولة الخوارزميـة رجل قوى شـديد البأس يسمى مـحمـد خوارزم شاه، وكـانت الدولة الخوارزمـية تعيش فى ذلك الوقت فى أوج قوتها.

وبدأ جنكيز خان يتطلع إلي توسـيع حدود دولته على حساب الدولة الخوارزمية، فبدأ يعـمل على استثارة محمد خوارزم شاه، إلى حد أنه أرسل إليه يطلب منه أن يعترف بسيادة المغول على دولته.

ووصل الأمـر منتـهـاه فى سنة ١٢١٨م عندمـا بعث

جنكيز خان تجارًا له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يشترون له ثيابا، فلما بلغت القافلة مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون، أجهز حاكم أوترار على المسافرين وسلب بضاعتهم وأموالهم، وأرسل نصفها إلى السلطان محمد خوارزم شاه.

فلما علم جنكيز خان بذلك غضب غضبا شديدًا، ورأى أن الفرصة قد حانت لينقض على دولة خوارزم المسلمة، فجهز جيشًا كبيرًا وسار به إلى بلاد المسلمين، ولما كان السلطان محمد خوارزم شاه يجهل المكان الذى سيهجم منه المغول، فقد قسم جيشه بين خط نهر سيحون وممرات فرغانة، واحتفظ بمعظم الجيش فى المدن الهامة بإقليم ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند.

واجتاز الجيش المغولى نهر سيحون عند منطقة أوترار ثم زحف إلى بخارى واستولى عليها، ثم انطلق إلى سمرقند واستولى عليها أيضًا.

وقتل التتار من أهل المنطقة أعدادًا كبيرة، وأحرقوا

المنازل والمدارس والمساجد، وأسروا الأطفال والنساء.

وفر السلطان محمد خوارزم شاه إلى خراسان، ومنها إلى جزيرة صغيرة داخل بحر قزوين، ومات فيها سنة ١٢٢٠م.

وتولى أمر الدولة الخوارزمية من بعده ابنه جلال الدين، الذى جمع حوله جيشا كبيرًا، واستطاع أن يصمد أمام التتار فترة من الزمن قوى فيها أركان دولته.

وفى إحدى المنازلات بين جيش المغول وجيش جلال الدين، استطاع المغول أن يحاصروا جيش جلال الدين على ضفتى نهر السند، وتحطم الجيش الخوارزمى، واستطاع جلال الدين النجاة بعد أن اجتاز نهر السند، ولجأ إلى ملك دهلى، وهناك أعاد تكوين جيشه مرة أخرى واستطاع السيطرة على فارس وأذربيجان وجزءًا كبيرًا من بلاد الكرج، وعظم أمره مرة ثانية، واستطاع أن يتصدى لحملات المغول.

وفى سنة ١٢٢٧م توفى جنكيز خـان وترك امبراطورية واسعة تمتد من كوريا حتى فارس ومن المحيط الهندى حتى سيبيريا.

وظلت الحرب بين التتار وجلال الدين سجالا، ينتصر عليهم مـرة، وينتصرون عليه مرة، مما جـعل جلال الدين يفكر فى مراسلة المـلوك والأمراء المسلمين ليسـتنجد بهم، فكتب إليـهم وبين لهم خطورة التتـار على بلاد المسلمين، فلم ينجـده أحد، فعـزم جلال الدين على قـتالهم، وبدأ بقتال الملك الأشرف لأنه أغلظ له الرد، وسار جلال الدين بجيـشه إلى خلاط، وهجم علـيها، وقـتل أهلها، ونهب أمـوالها، وخـرب ديارها!، ثم أغـار على حـران والرها، وفعل جلال الدين بهـذه البلاد المسلمة كما يفـعل التتار، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكـان جـلال الـدين يريد مـواصلة غـــزوه فى بلاد المسلمين لولا أنه علم بقـدوم جيش التـتار لقـتاله بقـيادة شورمـاجان فخرج لملاقـاته، ولكنه لم يثبت أمامـه، وفر

هاربًا، وأثناء فراره من المعركة قتل على يد فلاح كردى انتقاما لأخيه الذى قتله جلال الدين منذ زمن طويل.

وتمزق الجيش الخوارزمى، والتحق أفراده بعواصم البلاد الإسلامية لعلهم يجدون من يجمعهم على قتال التتار مرة ثانية.

وأضاف القائد المغولى شورماجان كل شمال فارس وأذربيجان إلى الإمبراطورية المغولية.

وبدأ الجيش المغولى يغير على أجزاء من أوروبا، وأحدث تدميرًا كبيرًا فى جزء كبير منها.

وفى سنة ١٢٤١م أصبح كيوك بن أوكيتاى ملكا على المغول، وفى عهده سادت الاضطرابات المملكة المغولية، وفى سنة ١٢٥١م انتخب منكو ملكا على المغول، وكان أخوه هولاكو قائدًا للقوات المغولية فى فارس، وكان هولاكو شديد الكره للمسلمين، وكان يتمنى أن يقضى عليهم، لذلك ظل خمسة أعوام تقريبًا يجهز حملة ضخمة

لمهاجمة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وجهز لأجل ذلك الطرق التى سيسير عليها الجيش، وأعد العدة والعتاد، ونظم كل شىء بدقة وعناية.



سيطرة المغول على بغداد

وفى سنة ١٢٥٦م اجـتاز جـيش المغـول الضخم نهـر جـيـحـون، وكـان أول هدف لهـذا الجـيش هو تدمـيـر الإسماعيلية (الحشاشين) والاسـتيلاء على مقرهم فى قلعة آلموت لأنهم عملوا كثيرًا على إلحاق الأذى بجيش المغول، كما أنهم قتلوا جغتاى ثانى أبناء جنكيز خان.

وبالفعل اتجـه جيش المغول نـحو القلعة وحـاصرها، واسـتـسلم زعـيم الإسمـاعـيليين ركن الدين خـورشـاه لهولاكـو، واستـأصل المغول شأفـة الإسمـاعيليـة تماما، وذبحـوا منهم أعدادًا ضـخـمة، وأحـرقوا مـا بمكتـبتـهم الضخمة من كتب.

ثم تحرك هولاكـو بجيـشه إلى بغـداد، وكان الخليـفة

العباسي فى ذلك الوقت هو المستعصم بالله.

وكان باستطاعة الخليفة المستعصم أن يحشد جيشًا كبيرًا لمواجهة التـتار، فقد كان عـدد فرسان جيش الخـلافة مائة وعشـرين ألف فـارس، ولكن الوزير الخائن مـؤيد الدين العلقمى قام بدور مشبـوه فى إثارة شكوك الخليفة بقواته، ونصحه بتخفيض عدد قوات الجيش لتوفير المال الذى يمكن تقديمه لهولاكو حتى لا يهاجم بغداد.

وأرسل هولاكو إلى الخليفة يطلب منه الاعتراف بسيادة المغول على الخلافة، فرفض الخليفة هذا الأمر رفضا تاما، وطلب من كاتبه السنى أيبك الاستعداد للحرب.

وفى ذلك الوقت قدم إلى جـيش المغول القائد بيـجو ومعه جيشه الذى كان يرابط على أطراف الأناضول.

واقتـرب جيش المغول من بغـداد، وكان ذلك فى سنة ١٢٥٨م الموافق ٦٥٦ هـ، وعبر القـائد بيجو بجيـشه نهر دجلة عند الموصل، أما القائد كتـبغا فدخل بالجناح الأيسر

للجيش سهل العراق الواقع شرقى العاصمة بينما زحف هولاكو بقلب الجيش مخترقا كرمان شاه.

ولم يستطع الجيش الرئيسى للخليفة بقيادة أيبك الصمود أمام جيش القائد بيجو، وانسحب أيبك إلى بغداد بعد أن أبيد معظم جيشه.

وطوق المغول بغداد من جميع الجهات، وتهدم السور الشرقى للمدينة بعد أن تعرض للقذف الشديد، وتدفق جنود المغول داخل بغداد، وسلم الخليفة نفسه لهولاكو، وأفصح له عن الأماكن التى خبأ فيها ثروته، وبعد ذلك لقى الخليفة مصرعه.

وأحدث المغول المذابح فى أنحاء المدينة، وكانوا يذبحون كل من يأتى أمامهم، حتى الأطفال الرضع لم يسلموا من الذبح، ومما يروى فى ذلك أن أحد المغول عثر فى شارع جانبى على أربعين طفلاً حديثى الولادة، وقد ماتت أمهاتهم فأجهز عليهم، وقتل فى أربعين يوماً نحو ثمانين ألفًا من سكان بغداد.

وأخذ المغول الكتب من مكتبات بغداد العامرة بنفائس العلوم والكتب النادرة وألقـوا بها فى النـهر حتـى أن ماء النهر ظل ماؤه أسود عدة أيام من أحبار الكتب.

واستولى المغول على كل الثروات الموجودة فى خزائن العباسيين، وخربوا البـيوت والمدراس والمساجد، وصارت المدينة كلها خرابا.

ولما وصل نبأ سـقوط بغداد إلى البلاد الإسـلامية عم الحزن الجميع، فعلي الرغم من أن الخلافة العباسية لم يكن لهـا السـيطرة التـامة عـلى البـلاد، إلا أنها كـانت رمـزًا للإسلام، ولها مكانة معنوية فى نفوس المسلمين جميعًا.

وبدأ هولاكو يتـوغل بجيشـه فى بلاد الشام، فـسيطر على حلب ثم أنـطاكيـة ودمـشق وحـمـاة، فظن أعـداء الإسلام أن عرش الإسلام بدأ يتـهاوى، وأن القضاء على المسلمين قد أصبح وشيكا.

وفى الحقـيقـة كان هذا الأمر مـحنة لم يشهـد العالم

الإسلامى مثيلا لها، ومهما حاول أعداء الإسلام أن يطفئوا نور الحق فلن يستطيعوا، فقد وعد الله بحفظ دينه، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ولم يبق فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت سوى دولة واحدة كبيرة تستطيع أن تواجه الخطر المغولى، وهى مصر.



مصر قبيل غزو التتار

بعد وفاة صلاح الدين الأيـوبى ـ رحمه الله ـ ظهرت صعوبة في المحـافظة على وحدة المسلمين السياسـية بسبب المطامح الفـردية، والمطامع الأنانيـة، فقـد توزعت المملكة الأيوبيـة أجـزاء على أبنـاء صـلاح الدين وإخـوته وأبناء إخوته، ووصل الصراع بين أفـراد الأسرة الأيوبية إلى حد المواجهة المسلحـة، وربما استعان بعضـهم بالصليبيين على غيره.

وظل الحـال كذلك حـتى اسـتطاع الملك العادل أخـو صلاح الدين إعـادة الوحدة للعالـم الإسلامى، وعين ابنه الكامل لحكم مصر، وبدأ الهدوء يتحقق نسبيا فى المنطقة، ولكن الحـملة الصليبيـة الخامـسة لم تلبث أن ظهـرت،

وكانت وجهتها هذه المرة مصر، واستطاعت أن تسيطر على دمياط، وجاء جيش الشام إلى مصر بقيادة الملك المعظم لمساعدة جيش أخيه الكامل، ورغم ذلك لم ينجح جيش مصر ومعه جيش الشام فى إخراج الصليبيين، وعاد الملك المعظم بجيشه إلى الشام، وحدثت بعد ذلك معارك دامية بين الصليبيين وجيش مصر، ولكنها لم تحسم الصراع.

وحدث أن القوات البحرية المصرية تمكنت من إغراق سفن الأسطول الصليبى، مما أثر على معنويات الصليبيين، كما حدث اتحاد بين جيش مصر بقيادة الكامل، وجيش الشام بقيادة الملك المعظم وجيش حلب بقيادة الأخ الثالث الأشرف، فشعر الصليبيون بخطورة الموقف، فعقدوا صلحا مع المسلمين، وتحررت مصر بعد حكم صليبى دام سنتين وسبعة أشهر، وبذلك انتهت الحملة الصليبية الخامسة دون أن تحرز نتائج حاسمة.

وعاد الهدوء النسبى ليسيطر على المنطقة، ورجع

الخـلاف للظهـــور بين الإخـوة الأيوبيين الثـــلاثة الكامل والمعظم والأشرف، وفى هذه الـفترة كـان السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه قد بدأ يستعـيد قوته، ويعيد ترتيب دولته، وتمكن من فرض هيمنته عـلى الخليفة العباسى فى بغداد، ولما رأى الملك المعظم ذلـك عمل على طلب دعم جلال الدين واعترف بسيادته.

ووجـه السلطان جـلال الدين جـيشـا يهـدد به مملكة الأشـرف، وفى هذه الفـتـرة توفى الملـك المعظم، وتولى مكانه ابنه الناصر داود.

وأرسل الملك الكامل إلى الإمـبـراطور الألمانى يطلب منه التـعاون مـقابل التـنازل عن بيت المقدس، ثم حـدث اتفاق بين الكامل والأشرف، وعقـدا صلحا مع الصليبيين يقـضى بتنازل المسلـمين عن مـدينة القـدس على أن تظل منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى أيدى المسلمين.

وجزع العالم الإسلامى كله لضياع القدس، واستعظم المسلمون ذلك.

واستطاع الملك الكامل أن يفرض سيطرته على المنطقة، وعندما توفى الملك الأشرف وتولي أخوه الصالح إسماعيل حكومة دمشق، لم يلبث الملك الكامل أن زحف إلى دمشق وضمها إلى ملكه.

ومات الكامل فتولي حكم دمشق الجواد ابن أخيه، وتولي العادل الثانى حكم مصر، ولكن الصالح أيوب استطاع أن ينتزع مصر من أخيه، وظل الصراع دائرًا بينه وبين عمه الصالح إسماعيل.

وعاد التمزق مرة أخرى بين الأيوبيين، مما أطمع الصليبيين فى الهجوم على المسلمين، ولكن سرعان ما تصدى المسلمون لهجوم الصليبيين.

واندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح إسماعيل، وأفاد الصليبيون من هذا النزاع، وطلبوا من المسلمين تسليمهم المعبد فى بيت المقدس، ولكن الصالح أيوب أدرك ضرورة إظهار القوة فى وجه الصليبيين، فوجه جيشا من الخوارزمية إلى المدينة المقدسة وحطم حاميتها،

وخلص القدس من أيدى الصليبيين.

وأراد الصليبيون أن يثأروا لذلك، ولكن الصالح أيوب تصدى لهم وانتصر عليهم.

ثم توجه الملك الصالح أيوب إلى دمشق، وضمها إلى سيطرته، وجاءت حملة صليبية جديدة إلى المنطقة بقيادة لويس التاسع واستطاعت أن تدخل دمياط، وبدأ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة، فأمر الملك الصالح جيشه بالتوجه إلى المنصورة، وأقبل المجاهدون والرجال المتطوعون من عوام الناس الذين لبوا دعوة الجهاد فى سبيل الله، فأقبلوا من كل حدب ينسلون، وجاءت جموع من العربان فأخذوا يشنون الغارات على الفرنج ويناوشونهم.

ولكن المرض اشتد على السلطان، وأحس بدنو الأجل، فأوصى زوجته شجرة الدر ومن يثق بهم من رجاله أن يكتموا موته إذا مات لئلا تضطرب قلوب المسلمين، وأمضى بيده إمضاءات كثيرة على ورق خال

ليستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته، حتى يقدم ابنه وولى عهده توران شاه من حصن كيفا.

وأسلم الملك روحه إلى الله، ولم تدع شجرة الدر الحزن ليسيطر عليها فينسيها وصية زوجها فى الاحتياط لمصلحة البلاد وحفظ شمل المسلمين، فتركت جثة السلطان للطبيب يتولى غسلها.

وأحضرت شجرة الدر الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين فنعت إليهما السلطان، ووصتهما بكتمان موته، ورسمت لهما الخطة التى يجب عليهما انتهاجها، ثم استقدمت الأمراء الذين بالمعسكر، وقالت لهم: إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له، ولابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا، أن يكون سلطانا بعده وللأمير فخر الدين بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة، فقالوا جميعًا: سمعا وطاعة.

وأخذت شجرة الدر تدبر الأمور وتصدر الأوامر، وظل جيش المسلمين يقاوم الصليبيين حتى وصل توران

شاه إلى مصر، وتولى القيادة، وتمكن من تطويق جيش الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع فى المنصورة، وحدث اتفاق بين المسلمين والصليبيين يقضى بتسليم دمياط للمسلمين، وفدى لويس التاسع نفسه بمبلغ كبير.

وُقتل توران شاه على يد المماليك خوفا من أن تتغير سياسته نحوهم، ونصب المماليك عز الدين أيبك قائدًا عاما للعساكر ووصيا على العرش، وتزوج أيبك من السلطانة شجر الدر، وفى هذه الفترة كان الخطر المغولى على بلاد الإسلام قد اشتد، فاعترف الخليفة العباسى بأيبك سلطانا على مصر.

ولكن أيبك لم يكن مطمئنا إلي وضعه رغم زواجه من شجرة الدر، فعمل على تعيين الطفل الأيوبى الأشرف موسى ليكون قسيما له فى السلطة، وسرعان ما اصطدم طموح شجرة الدر بطموح أيبك، فدبرت مؤامرة لقتله، وماتت شجرة الدر أيضًا حيث تعرضت للضرب الشديد من وصيفاتها إيعاذا من زوجة أيبك الأولى.

وَعُيِّن نور الدين على ابن السلطـان أيبك سلطانا على مصر، وهو لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، فعزله قطز أحد قادة أبيه، وتولى السلطة فى مصر.



السلطان سيف الدين قطز

يقـال إن السلطان قطز فى الأصل أحـد أبناء الأسـرة الخوارزمـية التى شـتت المغول شـملها، واسمـه الحقـيقى محمود بـن مدود، وهو ابن أخت السلطان جلال الدين، وقد أسره مـجموعة من أهل خلاط انتـقامًا لأهلهم الذين شردهم جـلال الدين، وقد أسروا معـه ابنة لجلال الدين، وباعوهما فى سوق الرقيق بعد أن غيـروا اسميهما باسمين أعجـميين، فاشتـراهما تاجر من حلب، وباعهـما لرجل دمشقى، فأحسن مثواهمـا وأكرمهما، وظلا عنده فترة من الزمن، ثم بيع قطز لرجل دمشقى آخر فأحبه وأكرمه.

وفى دمشق بدأ قطز يتردد على العالم المجاهد العز بن عبد السلام سلطان العلماء، ويستمع لأحاديثه ونصائحه.

وذات ليلة، رأى قطز فى نومه رؤيا عجيبة، قصها على الشيخ العز بن عبد السلام قائلا:

أرقت البارحة، ونابنى ضيق شديد، فقمت وتوضأت وصليت النفل، وأوترت ودعوت الله، ثم عدت إلى فراشى فغلبتنى عيناى، ورأيت كأنى ضللت طريقى فى برية قفراء فجلست على صخرة أبكى، وبينما أنا كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت يتقدمها رجل أبيض جميل الوجه، على رأسه جمة تضرب إلى أذنيه، فلما رآنى أشار لأصحابه فوقفوا، وترجل عن فرسه، ودنا منى، فأنهضنى بقوة، وضرب على صدرى وقال لى: قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصر فستملكها وتهزم التتار، فعجبت من معرفته اسمى، وأردت أن أسأله من هو؟ فما أمهلنى أن ركب جواده، فانطلق، فصحت بأعلى صوت: من أنت؟

فالتفت أحد أصحابه وهم منطلقون فى أثره: ويلك هذا محمد رسول الله ﷺ.

فلما سمع الشيخ ابن عبد السلام هذه الرؤيا الصالحة، فرح وبشر قطز، ورفع يديه إلى السماء قائلا:

اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام.

واستأذن قطز سيده فى أن يذهب ليجاهد مع جيش مصر ضد الصالح إسماعيل الذى خان الله ورسوله وحالف الصليبيين ضد المسلمين، فأذن له سيده، فأبلى قطز فى هذه المعركة بلاء حسنا، ثم طلب قطز من سيده أن يبيعه للملك الصالح أيوب لينضم إلى جيشه مجاهدا فى سبيل الله.

وبيع قطز للملك الصالح، ثم وهبه الملك الصالح أيوب لعز الدين أيبك الصالحى أحد أمراء مماليكه.

وبمرور الأيام ازدادت منزلة قطز لدى سيده أيبك، لما رأى من إخلاصه وتفانيه وشجاعته، فقربه إليه، وقدمه على غيره، ولما تزوج عز الدين أيبك من شجرة الدر

ازدادت مكانة قطز فى البلاد، وعين نائبا للسلطنة، ولكن سرعان ما تغيرت شجرة الدر على أيبك فكادت له، وقتل عز الدين أيبك، وقتلت من بعده شجرة الدر.

ونصب نور الديـن على بن المعـز أيبك سلـطانا على البلاد، ولقب بالملك المنصـور، وكان عمره خـمس عشرة سنة، وظل الأمير سيف الدين قطز نائبا للسلطنة.

وفى ذلك الوقت، كـانت بغداد قد وقـعت فى أيدى التتار، وأصـبح خطر التتار قريبا من مـصر، وكانت أنظار المسلمين جميعًا تتجه إلى مـصر لتنقذ العالم الإسلامى من خطر المغول.

ورأى قطز أن السلطان الصغـير لا يستطيع تدبيـر أمر المملكة، فـخلع قطز السلطان الـصغـير، ونـصب نفسـه سلطانا على البلاد، وكان مما اعتذر به للفقهاء والقضاة أن قال لهم:

لابد للنـاس من سلطان قـاهـر يقـاتل عن المـسلمين

عدوهم، وهذا صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة.

وعندما تولى قطز السلطة عاد إلى مصر سائر المماليك الذين حملتهم كراهيتهم لأيبك على الفرار إلى الشام كأمثال القائد بيبرس.



قطز يواجه التتار

ولم يكد قطز يسيطر على الموقف حتى وصل وفد من قبل هولاكـو ملك المغول يحمل لقطز رسالة كلهـا تهديد ووعيد.

فعقـد قطز اجتماعا ضم أمـراء المماليك، فكان الرأى هو العزم على الحرب.

فـقبض قطز عـلى رجال وفـد هولاكـو وأعدمـهم، وعرض أجـسادهم للـناس، وأخذ قطز يحـشد الحـشود، ويعد العدة، ويجهز الجيش لمواجهة التتار.

واحتاج قطز للأموال، ففرض الضرائب على الشعب، ولكنه وجد معارضة من العلماء على هذه الضرائب وعلى رأسهم العز بن عبـد السلام الذى أعلن أن على الأمير إذا

أراد فرض الضرائب أن يأخذ قبل ذلك الحلى التى فى بيته وبيت أمثاله من الأمراء، وأن يضربها نقودًا فإن لم تف بالحاجة يفرض بعدها الضرائب، فامتثل قطز لكلام الشيخ ابن عبد السلام، وفعل ما أمر به.

وأحصى قطز ما جاء من عند الأمراء فوجد أنه لا يكفى لتقوية الجيش وتموينه، فعند ذلك أمر بإحصاء الأموال وأخذ زكاتها من أربابها، وبأخذ كراء شهرين من الأملاك والعقارات المستأجرة، وبفرض دينار على رأس كل قادر من أهل البلاد فاجتمع من ذلك فى بيت المال نحو ستمائة ألف دينار.

وأمر الملك المظفر قطز وزيره يعقوب بن عبد الرفيع وأتابكه أقطاى المستعرب أن يباشروا تقوية الجيش المصرى بالأسلحة والعدد وآلات القتال، وتكثير عدده بتجنيد الشباب الأقوياء من أهل مصر، واستقدام العربان والبدو وتجنيدهم وتفريق الأموال فيهم، وأمرهما بإنشاء المصانع الكبيرة لصنع الأسلحة والمجانيق وغيرها من العدد

الحربيـة، وبشراء الجـياد العـربية الأصـيلة والبغال الـقوية والإبل الهجان.

وانضم إلى جـيش قطز عـدد كبـير من بلاد الإسـلام المحبين للجهاد في سبيل الله.

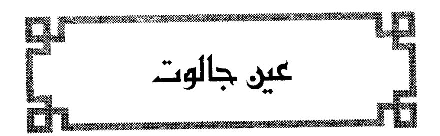
وقام الشيخ ابن عـبد السلام بدور كبيـر في التحريض على الجهـاد، وذلك عندما أنشـأ ديوانا كبيـرًا للدعوة إلى الجهاد في سـبيل الله، يضم إليه من يختـارهم من خطباء الجوامع، فيلقنهم مـا ينبغي لهم أن يخطبوا الناس به على المنابر ليدعوهم إلى الجهاد، ويبينوا لهم فضائله، ويفصلوا لهم ما أنزل الـتتار ببـغداد وغيـرها من بلاد المسلمين من الخراب والدمار، وما اقترفـوه فيها من سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض والحرمات.

وكتب قطز إلى ملوك بلاد الشام وأمـرائها يشرح لهم أنه جاد في العـزم على قتال التتار، وهو مـصمم على أن ينقذ بلاد الإسلام منهم، ويطهرها من رجسهم، وأنه يعتبر بلاد الشام حصـون مصر الأمامية، وأن وقـوعها في أيدي

التتار يعرض سلامة مصر للخطر وأكد لهم أنه لا مطمع له فى ملك الشام وسيترك بلاد الشام لملوكها وأمرائها.

فاستجاب لقطز بعض الأمراء وانضموا لجيشه، وانضم آخرون منهم لجيش هولاكو، وكتب الله على هؤلاء الخونة الذل فى الدنيا، والخزى فى الآخرة.





عين جالوت

وهكذا اكتمل لقطز الاستعـداد لمواجهة التتار، فأرسل حـملة استطلاعـية بإمـرة الظاهر بيـبرس البندقـدارى إلى جهات غزة، فانتصر على حملة تتارية متقدمة، وظل يناور التتـار كى لا يعلموا بتحـرك الجيش الرئيـسى الذى يقوده سيف الدين قطز.

وأرسل قطز يهدد الصليـبيين إن بدرت منهم أية بادرة شـر، وطلب منهم أن يكونوا على الحـياد إن لم ينصـروا المسلمين، ولم يكن وضع الصليبيين يومئذ بالذى يساعدهم على التحرك سواء أكان بجانب المسلمين أم بجانب التتار.

وغادر السلطان قطز مصر، وسار بجيشه على الطريق الساحلى، ولم تمض أكثر من أيام قليلة حتى أقام معسكره

فى الحدائق خارج أسوار عكا.

ولقد كان التوقف بظاهر عكا مناسبة جيدة للمسلمين الذين كانوا فى حاجة لفترة قصيرة من الراحة بعد عناء المسير الطويل فى سيناء خلال أصعب شهور السنة.

ووصلت الأخبار إلى كتبغا قائد المغول بتقدم الجيش المصرى إلى غزة، فتجهز على الفور للمسير إلى وادى نهر الأردن، ولكن حدثت ثورة فى دمشق أعاقت تحرك جيش المغول، فلقد ضاق أهل دمشق ذرعًا بمضايقات الصليبيين، فهب المسلمون فى ثورة عاتية تحطمت أمامها دور المسيحيين وكنائسهم، وكان من المحال السيطرة على الموقف إلا بعد أن تم زج قوات كبيرة من المغول لإعادة الأمن إلى نصابه.

وعندما فرغ كتبغا من قمع ثورة أهل دمشق قاد جيشه فى اتجاه الجنوب.

وعلم قطز وهو بعكا بتحرك جيش المغول وعبورهم

نهر الأردن، فبادر على الفور بقيادة جيشه تجاه الجنوب الشرقى، واجتاز مدينة الناصرة ووصل إلى عين جالوت فى رمضان عام ٦٥٨ هـ.

ولم يكن جيش المغول على علم كاف بطبيعة المنطقة، ولم يعرفوا أن جيش المسلمين على مقربة منهم.

ووضع قطز خطة محكمة للإيقاع بجيش المغول بكامله وبدون أن يترك له أى فرصة للنجاة أو التملص من المعركة.

ولكى يشتت قظز قوات المغول، فقد عمل على إخفاء كتلة من قواته الرئيسية فى التلال الغربية، ولم يظهر للعدو إلا المقدمة التى كان يقودها بيبرس.

ولما شاهد كتبغا قائد المغول مقدمة قوات المسلمين فى مواجهته ألقى بكل قواته فى المعركة حتى يستطيع حسم المعركة لمصلحته بأسرع ما يمكن .

فواجه بيبرس ومن معه جيش المغول، وخاضوا معركة

قاسية، ثم تظاهروا بالتراجع نحو التلال، وأسرع كتبغا لمطاردة بيبرس، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى تم تطويق الجيش المغولى بكامله، وبصورة مباغتة.

ومضت بضع ساعات من الصراع المرير، وتقدم الأمير قطز الصفوف، وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء وصاح بأعلى صوته : وا إسلاماه.

فكان لهذه الصيحة أثر بالغ فى إلهاب حماسة المسلمين للقتال.

وحاولت مجموعة من التتار أن تشق طريقها للخروج من دائرة الحصار، فكانت سيوف المسلمين فى انتظارهم، ولم يتمكن من النجاة سوى عدد قليل من المغول، وتحول ميدان المعركة إلى مجزرة حقيقية، وأصيب حصان كتبغا فلقى مصرعه وسقط كتبغا إلى الأرض، فألقى القبض عليه، واقتيد أسيرًا ثم قتل.

ولقد أظهر السلطان قطز فى هذه المعركة شجاعة

نادرة، فقد قتل جواده فى المعركة، ولم يجد من يأتيه بجواد آخر، فترجل وبقى واقفًا على الأرض ثابتًا، يقاتل الأعداء، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه، وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك. وظل واقفًا حتى جاءوا له بفرس فركبها، فلامه بعض الأمراء ، وقالوا : لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك.

فقال قطز: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله ربٌّ لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقًا من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام .

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وصدق الله العظيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

لقد كانت معركة عين جالوت فى العشر الأخيرة من رمضان يوم الجمعة، وهذه بشارة عظيمة، فإن وقعة بدر

كانت يوم الجمعة فى رمضان، وكان فيها نصر الإسلام.

وقـد روى أن قطز لما رأى جيش الـتتـار قال للأمـراء والجيوش الـذين معه: لا تقاتلوهم حـتى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الريح، ويدعـوا لنا الخطباء والناس فى صلاتهم

وعندمـا علم أهل دمشق بانتـصار إخـوانهم المسلمين انطلقوا يهاجمون التتـار ويذبحونهم، ويذبحون معهم كل من ساعدهم وأعانهم على المسلمين.



نهاية وشهادة

دخل قطز دمشق فى السابع والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـ، وبدأ التتـار يفرون مـن بلاد الشام خـوفـا من المسلمين، وتمكن قطز من فـتح بلاد الشام، وأعـاد بعض الأمراء الأيوبيين إلى ممالكهم بعد أن أخـذ المواثيق والعهود عليهم بالولاء.

واستأنف السلطان قطز رحلة العودة إلى مصر، ولكنه أخذ يرتاب فى سلوك القائد بيبـرس أقوى أتباعه وأشدهم بأسًا، ولهذا فـعندما طلب إليـه بيبـرس تعيينه نـائبا على حلب رفض قطز طلبه، فكان ذلك حافزًا إضـافيا لإكمال المؤامرة.

وحينمـا وصل الجيش المصـرى إلى حافـة الدلتا رأى

السلطان قطز أن يمضى هذا اليوم فى الخروج إلى صيد الأرانب فخرج فى جماعة من أمرائه، ولم يكد الموكب يبتعد عن المعسكر حتى تقدم أحدهم من السلطان كأنه يلتمس طلبا إليه وبينما أمسك بيد السلطان كأنه يهم بتقبيلها اندفع بيبرس فأتاه من الخلف وغرس سيفه فى ظهر الملك قطز.

وعندئذ أسرع المتأمرون بخيولهم إلى المعسكر وأعلنوا نبأ مصرع السلطان.

وكان أقطاى أتباك العساكر فى خيمة السلطان حين وصل المتآمرون، فسألهم أيهم قام بقتل السلطان، فأعلن بيبرس أنه هو الذى قتله، فطلب إليه أقطاى أن ينصب نفسه سلطانا على البلاد، وكان أقطاى أول من بذل الولاء لبيبرس، ثم حذا حذوه جميع قادة الجيش، وعاد بيبرس إلى القاهرة وقد أصبح سلطانا على مصر.

وعندما سمع الناس بمصرع الملك المظفر قطز، وقدوم بيبرس سلطانا مكانه عراهم همّ عظيم، وحزنوا على الملك

المظفر حـزنا شديدًا، وبكوه بعيونهم وقلوبهم، ثـم خشوا السلطان الجديد فكفت عيونهم عن البكاء، وظلت قلوبهم تبكيه.

وعندما علم الشـيخ العز بن عبـد السلام بخبـر موت تلميذه العظيم بكى وقال:

رحم الله شـبـابه، لو عــاش طويلا لجـدد شـبـاب الإسلام، لله أبوه، ما منعه من اختيار بيبرس بغض بيبرس له، وما ولى أمر المسلمين بعد عمـر بن عبد العزيز يعادله صلاحا وعدلا.

فرحمة الله على قطز الذى حمى بلاد الإسلام من كيد التتار، فالذى يقرأ سـيرة هذا البطل العظيم يشعر كأن الله سبحانه قد أوجده فى هذه الدنيا لتحقيق هذه المهمة، فلما أداها قبضه الله سبحانه إليه.



المظفر حزنا شديدًا، وبكوه بعيونهم وقلوبهم، ثم خشوا السلطان الجديد فكفت عيونهم عن البكاء، وظلت قلوبهم تبكيه.

وعندما علم الشيخ العز بن عبد السلام بخبر موت تلميذه العظيم بكى وقال:

رحم الله شبابه، لو عاش طويلا لجدد شباب الإسلام، لله أبوه، ما منعه من اختيار بيبرس بغض بيبرس له، وما ولى أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز يعادله صلاحا وعدلا.

فرحمة الله على قطز الذى حمى بلاد الإسلام من كيد التتار، فالذى يقرأ سيرة هذا البطل العظيم يشعر كأن الله سبحانه قد أوجده فى هذه الدنيا لتحقيق هذه المهمة، فلما أداها قبضه الله سبحانه إليه.



رقم الايداع
٩٨/١٣٨٤٨
الترقيم الدولى
٩٧٧ ـ ٢٦٥ ـ ٢٢٨ ـ ٥

دار الطباعة والنشر الإسلامية

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣